

# الجملة الرابعة

وهي

في ميدان من ميادين المعرفة

يقول الله عز وجل : « وعلم آدم الأسماء كلها » (١) لقد كانت نقطة البداية في تعليم آدم هي تعريفه على الأسماء ومسمياتها وهي نقطة البداية في كل معرفة فالإنسان يولد لا يعرف شيئا . قال تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « يولد الإنسان على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . انه من خلال الحواس ومن خلال الشعور ومن خلال البيئة تبدأ رحلة المعرفة عند الإنسان وتبدأ المعرفة الزائدة على الشعور بالتمييز بين الأشياء وتستكمل معرفة الشيء بمعرفة اسمه وكلما زادت معرفتنا بأسماء الأشياء وحقائقها من خلال الاسم المجرد أو التعريف يكون علمنا في ازدياد . وكلما كانت المعرفة مطابقة للواقع كانت المعرفة صحيحة وسليمة ، والمعارف كثيرة ، وكلما كثرت كان ذلك أدل على الكمال ، ولكن نوعا من المعرفة في حق إنسان هو أولى منه في حق إنسان آخر ، فمثلا صاحب الاختصاص قد يكون معيبا في حقه ألا يكون محيطا باختصاصه فالتبحر في اختصاصه أجود من محاولة التعرف على ما لا ينفعه ، والبشرية بمجموعها كلما زادت معرفتها فذلك أكثر نفعاً لهذه البشرية . ولكن ما هو الأنفع في حق إنسان ما من أنواع المعارف وما الذي يعطيه الأولوية ؟ ان هذا يختلف من إنسان الى آخر ومن ثم فإن الكلام عن المعارف ليس له نهاية ، والكلام عما يحتاجه كل إنسان على

(٢) النحل : ٧٨ .

(١) البقرة : ٣١ .

حدة شيء غير مستطاع للإنسان ولذلك فإن البحث عن القاعدة التي يستفيد منها كل الناس هو الذي ينبغي أن يبحث عنه الراغبون في الاستفادة وهذه الجولة هذه حدودها .

\* \* \*

لكل لغة قواميسها التي تذكر مفرداتها وتحدد معاني هذه المفردات ومن ذلك اللغة العربية ومن قبل قلنا ان تحديد المعنى الدقيق للكلمة ومعرفة مضمونها . ومعرفة أسماء الأشياء شيء مهم جدا . والتعبير عن المسميات اقتضى صياغة جمل تتألف من مفردات . ويطرأ عادة على المفرد طوارئء بحسب محله من الجملة ان على آخره أو على بنيته ومن ثم نشأ علم النحو والصرف ، علم النحو ليعرفنا على كيفية النطق الصحيح لآخر الكلمة بحسب موقعها من الجملة ، وعلم الصرف ليعرفنا على ما يطرأ على بنية الكلمة .

وهكذا وجدت القواميس وعلم النحو والصرف في اللغة العربية .

\* \* \*

وفي اللغة العربية يؤدي الحرف في العادة معنى « اسم أو فعل » وكثير من المعاني تؤدي بكلمات اصطلاح عليها . فأداة النداء « يا » تؤدي معنى « أدعو » واسم الإشارة « هذا » ينوب عن استعمال كلمتي « المشار إليه » فالبحث عن معنى الحرف ، والبحث عن معنى الاسم المعبر به عن معنى قد يتعرض له النحويون وقد لا يتعرضون . فحرف الجر الباء له عدة معان وحرف الجر « من » له عدة معان ، ومن ثم كان لابد من علم مكمل لعلم الصرف والنحو هو علم المعاني الذي هو أحد علوم البلاغة الثلاثة :

ان الأصل في الاستفهام اللغة أنه يتضمن سؤالاً يحتاج الى جواب والأصل في النداء أنه نداء إنسان ليسمع قبيستجيب . والنحو في الأصل يقول لنا عن كلمة أنها حرف نداء ، أو اسم استفهام أو حرف استفهام . فأى علم هو الذي يبين لنا أن الاستفهام يراد به غير السؤال كأن يراد به أمراً أو نهياً أو انكاراً أو تعجباً وأن النداء قد يراد به غير ما وضع له وهو التثجع أو التحسر أو اظهار العلو أو الدنو وأن الاخبار قد يراد به الأمر الى غير ذلك مما اعتاد الناس أن يخرجوا به صيغة عن أصل ما وضعت له لاستعمالات أخرى .

ان هذا العلم هو علم المعانى الذى ذكرناه وهو أحد علوم البلاغة  
الثلاثة .

\*\*\*

والانسان قد يعبر عن معنى بكلمة وضعت فى الأصل لهذا المعنى  
ككلمة كريم للكريم ولكنه قد يعبر عن المعنى عن طريق مجاز أو استعارة  
أو تشبيه أو كناية و المجاز أنواع كثيرة ، والكناية أكثر من نوع والاستعارة  
أنواع . والتشبيه أنواع فما هو العلم الذى يعرفنا على أساليب التعبير  
عن المعنى ؟ انه علم البيان وهو أحد علوم البلاغة الثلاث .

ثم هناك العلم الثالث من علوم البلاغة ، وهو العلم الذى يعرفنا  
أو يدلنا على ما يزداد به الحسن فى الكلام وكيف تجعل كلمتك أكثر  
رونقا وأبهى جمالا . ان العلم الذى يفتح لنا آفاق ذلك هو علم البديع ،  
وهو ثالث علوم البلاغة .

والانسان يعبر عن المعانى شعرا أو نثرا ، ومن ثم وجد علم العروض  
وعلم القافية . وفن الخطابة والمحاضرة والكتابة .

ومن استقراءات عامة للغة ما نتعرف على كثير من القواعد والضوابط  
والأسس . ومن هنا ينشأ علم فقه اللغة ، وذلك كله يقتضى أن  
نعرف كيف نرسم اللغة وكيف نكتبها ؟ وينشأ عن ذلك علم الخط  
وعلم الاملاء .

\*\*\*

مما ذكرناه تدرك أنك لكى تفهم نصا من النصوص قد تحتاج الى  
أن تعرف الاملاء ورسم الخط وعلم الصرف وعلم النحو وعلوم البلاغة  
الثلاثة وحتى فقه اللغة .

قد يتساءل متسائل وهل احتاج العربى القديم لكل هذا ؟ نقول :  
لا ، لأن العربى القديم كان من خلال الاستعمال اليومى يدرك المراد بلا  
وسائل ، فمثله كمثل مخترع آلة فانه لا يحتاج الى كثير عناء لاستعمالها  
واصلاحها وفكها وتركيبها . ولكن كم يحتاج غير مخترع السيارة الى  
جهد ليحسن فكها وتركيبها واصلاحها واستعمالها ثم ان العربى القديم  
نفسه لو أراد أن يدرس اللغة العربية وأن يعلمها فانه يحتاج الى تقسيم  
العلوم التى يحتاجها ذلك وايجاد مصطلحات من أجل ذلك ، فما حدث

تاريخيا كان لا بد منه ، ولذلك فان كل العلوم التي احتاجتها اللغة العربية نجدها موجودة عند كل أمة فذلك شيء لا بد منه ولا ينكره أو يستبعد انحاجة اليل الا جاهل .

ضع هذا في ذهنك وامش قليلا في هذه الجولة في ميدان المعرفة .

\* \* \*

قلنا انه من خلال الحواس والمشاعر الوجدانية . ومن خلال البيئة تنشأ معارف ولا معارف الابعقل . والعقل من خلال المعلوم يعرف المجهول بواسطة الاستنتاج . ومن خلال الاستقراء يعرف قواعد ومن خلال التركيب والتحليل وغير ذلك تنشأ علوم جديدة . ولو افترضنا أن رحلة المعرفة من بدايتها الى نهايتها كانت صحيحة وعلى مسار صحيح بأن كانت الحواس تعطى معلومات صحيحة ، والوجدان يعطى مشاعر صحيحة ، والاستقراء صحيح ، والاستنتاج صحيح . والعقل غير مجذوب بجواذب وأحكامه صحيحة . انه في مثل هذه الحالة لا بد أن تنشأ علوم صحيحة . ولكن الواقع البشرى ليس كذلك ، ومن ثم فقد حاولت البشرية أن تبحث عن ضوابط للوصول الى المعرفة الصحيحة . وكان كجزء من محاولتها أن نشأ علم المنطق وكجزء من محاولاتها للاجابة على كل سؤال أن نشأ علم الفلسفة واختلط علم المنطق بعلم الفلسفة ، وأدخل القدماء في علم الفلسفة علوما متعددة . ثم بدأت عمليات انفصال كآثر عن تقسيم العلوم ، ووجد لكل علم طرق تحقيقه ومن ثم حاول المحدثون أن يوجدوا علم منطق مناسب للعصر والمهم أن هناك شعورا من البشر في كل مراحل التاريخ بالاحتياج لعلم يضبط الاستنتاج أو الاستقراء ويدل على صحة النتائج ويعطى لكل قضية محلها في عالم الحقيقة مثل هذا العلم اصطلح على تسميته بعلم المنطق ، ولئن أخطأ اناس أو أحسنوا ، أو لم يصلوا الى نتيجة صحيحة ، أو اعتمدوا ما ليس صحيحا فان أصل الفكرة تمثل احتياجا من احتياجات البشرية لأن الاستنتاج يحتاج الى ضوابط والاستقراء يحتاج الى ضوابط والاستقراء يحتاج الى معالم ، ومن خلال الاستقراء والاستنتاج قامت الحضارات ، فكل العلوم الحديثة ، وكل قفزات المدنية الحديثة كانت أثرا عن استقراء أو استنتاج ولا بد لذلك كله من قواعد وضوابط ولا بد من علم يسجل ذلك .

ان علم الرياضيات كله هو أثر الاستنتاج ترى هل كان بالامكان أن

يصل انسان الى القمر بلا علم رياضيات ؟ وان كل دواء فى العالم هو أثر عن استقراء • ترى هل كان بالامكان أن يكون علم الأدوية الحالى على هذه الشاكلة بلا استقراء • ولكن أى استنتاج يوصل الى حقيقة ؟ وأى استقراء يوصل الى حقيقة ؟ ان مجرد معرفتنا بهذه القضية يؤكد لنا احتياجات البشرية لعلم ضابط وقد اصطاحت البشرية على أن تسمى العلم الباحث عن مثل هذه الشئون علم المنطق ، ومهما حمل الحاملون عليه فانهم لم يحملوا على كل شىء فيه ومهما دافع المدافعون عنه فانهم لا يستطيعون أن يقولوا : ان كل ما كتب فيه صحيح وان كل ما ورد فى كتبه هو الذى يحتاجه الانسان فضلا عن أن يحتاجه كل انسان ••

انه فى كثير من الأحيان استطاعت علوم أن تأخذ من علم المنطق ما يحتاجه دارس ذلك العلم منه ، فدمجته فيها كما حدث مثلا فى علم الأصول اذ استطاع علماء الأصول من المسلمين أن يقدموا فى كتبهم الكثير مما يحتاجه الانسان مما جرت العادة أن يكتب فى كتب المنطق أو كما فعل علماء الأدب ، أو علماء العقائد الاسلامية اذ أدخل كثير من هؤلاء ما يحتاجه الانسان من هذا العلم الى كتبهم ومن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها •

ولسنا فى معرض الثناء على علم المنطق أو محاربته ولا فى معرض أبحاثه واستطرادات أهله ولكننا فى معرض أن نقول ان الانسان بحاجة الى معالم ضابطة للاستنتاج العقلى الصحيح والاستقراء الكونى السليم من أجل ألا يرفض حقيقة عقلية أو حقيقة كونية ، ومن أجل ألا يقدم لنفسه أو للآخرين الغلط العقلى على أنه حقيقة عقلية أو الوهم على أنه حقيقة كونية •

\* \* \*

والله الذى خلق الانسان وأعطاه العقل وخلق الكون وجعله مسخرا للانسان : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (١) • ان الله الذى خلق الكون والانسان والعقل أنزل وحيا خلال العصور وكان الوحي الأخير الذى طالب به البشرية كلها هو الوحي الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم والمتمثل بالكتاب والسنة ، والذى هو تكليف الله للبشرية كلها • ومن

(١) لقمان : ٢٠ •

البدهييات أن لا يتناقض هذا الوحي مع استنتاج عقلي صحيح ، أو استقراء كوني صحيح ، هذه مسلمة من المسلمات وبديئية من البديهييات ولذلك فإن الانسان ينطلق في عملية التعرف على هذا الوحي وهو مسلم بالحكم العقلي ومسلم بالحكم العادي .

واذن فهو ينطلق نحو الفهم غير معطل لقانون عقلي ولا قانون كوني وغير رافض لتحقيق عقلية أو كونية بل هو يعتمد كل الحقائق العقلية والكونية في عملية الفهم للوحي المتمثل بالكتاب والسنة لذلك أكثر الله من ذكر العقل والفكر في القرآن ، وأنكر على من لا يعقل :  
**« أفلا تعقلون »** (١) • وجعل معرفة آيات الله في الكون علامة على العقل :  
**« ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون »** (٢) •

\* \* \*

واذ كان الوحي الذي كلفت به البشرية كلها قد أنزل بلغة العرب واذا كان الحكم العقلي والحكم العادي معتمدين عقلا ونقلا فان من أسس الفهم للوحي اتقان علوم اللغة العربية ومعرفة الحقائق العقلية والكونية .

فضع هذا في ذهنك وامش قليلا معنا في هذه الجولة •

\* \* \*

الكتاب والسنة كلاهما وحى فالله عز وجل قال : **« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم »** (٣) • والله عز وجل قال عن رسوله عليه الصلاة والسلام : **« وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحى يوحى »** (٤) • ويقول عليه الصلاة والسلام : **« ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه »** • وفي رواية **« ومثليه معه »** والسنة بالنسبة للقرآن بمثابة البيان له قال تعالى : **« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون »** (٥) فالسنة بالنسبة للقرآن سواء كانت قولية أو فعلية أو تقريرية أو حالية كالشارحة له أو المؤكدة أو المكملة •

\* \* \*

(٢) الرعد : ٤ •

(٤) النجم : ٤ ، ٣ •

(١) البقرة : ٧٦ •

(٣) ابراهيم : ١ •

(٥) النحل : ٤٤ •

والقرآن كله متواتر ولم يخالطه غيره والسنة بحسب الرواية منها المتواتر لفظا ومعنى ومنها المتواتر معنى لا لفظا ومنها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف وقد حاول أصناف الوضاعين أن يدخلوا عليها ما ليس منها • ولكن علماء الحديث كانوا لهم بالمرصاد •

\*\*\*

ومراعاة لوضع العرب في تعدد لهجاتهم ولغاتهم فقد أنزل القرآن على سبعة أحرف ثم جمع عثمان الناس على رسم واحد للمصحف فقرأ جميع الناس على هذا الرسم محتفظين ببقايا الأحرف مما لا يعارض رسم عثمان رضى الله عنه فبقى لنا من الأحرف السبعة بقيتها المتمثلة بالقراءات الصحيحة والمتواترة وبقيت روايات تمثل بقايا العلم بالأحرف السبعة ثم ان هناك من القرآن ما نسخ لفظه وبقيت الأمة مطالبة بمعناه •

ومن ثم فان البشرية مطالبة بالنسبة للوحي بواجب :

هو حصر ما هو وحى وحفظه واثباته وقد فعلت الأمة الاسلامية ذلك فحفظت بالنسبة للقرآن حتى الهمسة اذا تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن بها وبذلت هذه الأمة جهودا مضنية لحفظ السنة واثباتها وتمييزها عن غيرها وتصفيتها مما خالطها ، واعطاء كل نص منها صفته في مقدار الثبوت •

ثم ان عندنا بالنسبة للوحي واجبين آخرين :

الواجب الأول : فهم النصوص فهما صحيحا •

الواجب الثانى : تنفيذ ما تطالب به البشرية أو مجموعة منها أو فرد منها من مجموع هذا الوحي في لحظة من اللحظات وفي كل اللحظات في عصر من العصور ، وفي كل العصور في أوضاع عادية وفي أوضاع استثنائية ، وهذا اقتضى وجود ما يسمى بالحكم الشرعى والأصول التى ينبثق عنها الحكم الشرعى •

ضع هذا في ذهنك وامش معنا قليلا في هذه الجولة •

\*\*\*

• مما ابتليت به السنة ضعف ضبط الرواة ، وسوء نية بعضهم •  
• وفي عملية تصفية السنة قام علماء المسلمين بعمليتين • عملية تقييم

لرواة ، وعملية امتحان للمروى • فاذا ما خالف الضعيف الثقة فقد اعتبروا الرواية منكراً • واذا ما خالف الثقة ثقات ، أو من هو أوثق منه فذلك الشاذ ، واذن فمن ضرورات فهم النوحى واعتماده الاستشراق الشامل لمجموع النصوص •

\*\*\*

ثم ان السنة اذا رواها فرد فان احتمال التوهم في حقه أو احتمال الخطأ أو احتمال الرواية بالمعنى وعدم اصابة المعنى ، كل ذلك موجود ، واذن ففى عملية مسح كاملة للنصوص لأبد من التفريق بين النص القطعى الثبوت ، والنص الظنى الثبوت • حتى ولو كان صحيحا ما دام رواية أفراد ، وسيترتب على هذا حتما أحكامه فى قوة الالتزام لأن شيئاً طالب به الشارع فى الكتاب ، وفى السنة المتواترة له وزنه عند الشارع أكثر من شىء لم يروه عن الشارع الا واحد ، وروايته عنه تحتمل أن يكون الخطأ قد تسرب إليها •

ومن عملية استقراء شاملة للنصوص فى قضية التكليف نلاحظ أن تكليف الفرد مرتبط بمسئوليات الفرد فى المحيط الاجتماعى ، ومرتببط بطاقته ومرتببط بالظروف التى يواجهها ، ومرتببط بالظروف التى تواجهها أمته • فمن كان متزوجا كان تكليفه أوسع من تكليف العزب • ومن كان وزيراً كان تكليفه من ناحية أوسع من تكليف الرجل العادى • ومن ملك كان تكليفه من ناحية أوسع من تكليف من لا يملك ، ومن أعطى عقلاً وأسعاً كان تكليفه أوسع من تكليف من طاقته العقلية محدودة ، ومن رأى رجلاً يغرق وهو قادر على انقاذه فواجب عليه الانقاذ ، واذا هوجمت الأمة فعلى كل فرد قادر أن يقاتل •

\*\*\*

ومن عملية استقراء شاملة للنصوص نستخرج قواعد ونعرف مبادئ : نعرف أن مصلحة العباد مرادة للشارع ، وأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح • ونعرف أن الأعراف الصالحة تعتمد على الشريعة ، ونعرف أن الضرر يزال شرعاً • ونعرف أن للضرورات أحكامها ، ولكن كثيراً ما يحدث أن الكثيرين لا يعرفون أن يضعوا هذه الأمور مواضعها •

\*\*\*

والمسلمون بمجموعهم والمسلمون في كل قطر من أقطارهم يواجهون كل يوم حالات كثيرة • وتطراً عليهم طوارئ متعددة • وكل ذلك يقتضى منهم معرفة حكم الله فيما هم فيه على حسب التكليف الالهي •

\* \* \*

والقرآن في الأصل منه المحكم ومنه المشابه • ولقد قال ابن عباس فيما يرويه عنه ابن جرير في تفسيره : « التفسير على أربعة أوجه ، وجه تعرفه العرب من كلامها • وتفسير لا يعذر أحد بجهلته • وتفسير تعرفه العلماء • وتفسير لا يعلمه الا الله » فاذا كان القرآن هذا شأنه واذا كانت السنة هذا شأنها ، واذا كان التكليف هذا شأنه فان ذلك اقتضى وجود منصب الاجتهاد ومنصب الافتاء •

فلا بد من وجود القادر على الاجتهاد الذى من شروطه امتلاك أدوات الفهم من علوم لغة ، وكمال عقل ، والذى من شروطه استشرافه الشامل للنصوص ، والقدرة الصحيحة على فهمها ، والذى من شروطه أن يعرف حكم الحوادث ، والمسائل غير المتناهية على ضوء القواعد التى وضعتها النصوص لاستخراج المسائل التى لم يصرح بحكمها مراعيًا في ذلك مقاصد الشريعة ونصوصها • ولقد سلمت الأمة خلال عصورها للكثيرين بانهم وصلوا الى رتبة الاجتهاد • وخصت منهم بالاعتماد أربعة : أبا حنيفة والثافعى وأحمد ومالكا في قضايا الفقه العملى • وذلك لأسباب منها : أن كلا من هؤلاء ملك ناصية الاجتهاد ، وأن اجتهاده كان مبنيا على قواعد منضبطة وأنه قد وجدت له مدرسة تتبنى اتجاهه وتكمله وتفتى على ضوءه ، وأن آراءه قد نقلت لنا نقلا صحيحا عن عدول وضمن شروط •

وسلمت الأمة في قضايا العقائد لاثنين : أبو الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدى • لأسباب منها :

الثقة بالاستشراف على مجموع النصوص والفهم النظرى لها • والرد على الذين ساروا وراء المشابهة من الفرق الاسلامية ، وكل ذلك على ضوء أصول منضبطة وقواعد محكمة في الفهم والتأصيل والتعديد •

وهكذا وجدت مذاهب في الفقه والاعتقاد ، ووجد العلم الذى يضبط الاجتهاد والفتوى وهو علم أصول الفقه • ولعلنا أدركنا بهذه

انجولة محل الحكم العقلي والعاىى فى ءىن الله • وءرفنا محل علوم  
اللغة فى فهم ءىن الله • وءرفنا أن ءىن الله ءفصله نصوص الكءاب والسنة  
وءرفنا أنه ىنبءق من الكءاب والسنة أحكام الشرع فى أفعال المكلفىن  
على ضوء قواعد منضبطة اسءخرجها علم أصول الفقه الذى به ءءجلى  
روعة النصوص وءنصهر فىه العلوم • فهو العلم الذى ىجعل اللغة  
والمنطق ىنصهران فى علم واحد ىءدم الحكم الشرعى • وهو العلم  
الذى ىءل على طرىق الوصول الى الحكم الشرعى الصءىء ومن ءم  
كان العلم الذى لا ىفلاء فىه الا من اءءمعء له العلوم واستكمل كمال  
العقل •

ىقول الغزالى : « وأشرف العلوم ما ازءوء فىه الرأى • والشرع ،  
وعلم أصول الفقه من هذا القبىل فانه ىأءء من صفو الشرع والعقل سواء  
السبىل ، فلا هو ءصرف بمءض العقول بءىء لا ىءلقاه الشرع بالقبول  
ولا هو مبنى على مءض ءءقلىء الذى لا ىشهد له العقل بالءأبىء  
والءسءىء » •

\*\*\*